الفصل الخامس

تكوين العقلية العلمية فى القرآن

- رفض الظن فى موضع اليقين .
- عدم اتباع الأهواء والعواطف .
- رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف .
- إنكار التبعية للسادة والكبراء .
- التعبد بالتفكر والنظر العقلى .
- لا تُقبل دعوى بغير برهان .
- رعاية سنن الله فى الكون والمجتمع .

OBEIKAN.COM

OBEIKAN.COM

تكوين العقلية العلميـة
فى القرآن

ومن أعظم ما عنى به القرآن فى مجالنا : هو تكوين العقلية العلمية . .

فهناك ما يمكن أن نطلق عليه « العقلية العامية » أو « العقلية الخرافية » ، وهى التى تصدِّق كل ما يُقال لها أو يُعرض عليها ، ولا تضعه موضع امتحان ، بل تأخذه قضية مسلَّمة ، ولا سيما إذا جاء من قِبَل مَن تعظِّمه ، مثل الأجداد والآباء ، أو السادة والكبراء . فتقول : إنَّا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، أو وجدنا سادتنا على ذلك يسيرون .

وفى مقابل هذه العقلية المتَّبِعة ، توجد عقلية أُخرى مخالفة ، لها مواصفاتها وخصائصها ، وهى التى عمل القرآن بآياته المشرعة والموجهة على إنشائها ، وصياغتها ، وإبرازها لتقوم بدورها فى الحياة .

ومن المقرر المعلوم : أنه لا يمكن أن يزدهر العلم ، وتتأصل جذوره ، وتمتد فروعه ، بل لا يمكن أن ينشأ علم صحيح إلا فى مناخ نفسى وفكرى يهيئ للعقول أن تفكر ، وللأفكار أن تتفتح ، وللآراء أن تناقش ، ولصاحب الحُجَّة أن يدلى بحُجَّته ، وهذا ما يعمل القرآن على إيجاده فى الحياة الإسلامية ، وبعبارة أُخرى : يعمل القرآن بدعوته القوية ، وبتوجيهاته المتكررة على تكوين « العقلية العلمية » المتحررة ، التى لا ينهض علم إلا على عاتقها ، فهو يرفض « العقلية الخرافية » ، ويرفض « العقلية المقلِّدة » ويرفض « العقلية المتخرصة » ويرفض « العقلية المتبعة للهوى » .

OBEIKAN.COM

أما كيف يكوِّن القرآن بتعاليمه هذه العقلية العلمية ، فهذا ما نوضحه فى هذه الصحائف . ومَن قرأ القرآن وتدبره بحق وجد مقوِّمات هذه العقلية مجسَّمة فيه .

* *

١ - رفض الظن فى موضع اليقين :

وأول ما توصف به هذه العقلية كما بيَّن القرآن : أنها ترفض الظن فى كل موضع يُطلب فيه اليقين ، كما فى مقام تأسيس العقائد التى تقوم عليها نظرة الإنسان إلى الوجود ، أعنى : إلى الله والكون والإنسان والحياة . فهذه القضايا الكبرى لا يكفى فيها الظن ، بل لا بد فيها من العلم ، أى العلم اليقينى . قد يكفى الظن فى قضايا الفروع والجزئيات ، التى تقوم عليها تعاملات الناس بعضهم ببعض ، ولهذا تُقبل شهادة الشهود مع احتمال الخطأ والكذب ، ويُقبل حديث الواحد ، مع احتمال ذلك .

أما فى القضايا الكلية الكبرى ، فلا يُستغنى فيها عن اليقين .

ومن هنا أنكر القرآن على المشركين اتباعهم الظن فى هذه القضايا ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً ؛ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

وفى سورة أُخرى : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٢) .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) يونس : ٣٦ (٢) النجم : ٢٨ (٣) الأنعام : ١٤٨

وقال فى شأن المشركين عموماً ، ودعوتهم للأصنام من دون الله : ﴿ أَلا إِنَّ لله مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ ﴾ (١) .

بل جعل القرآن اتباع الظن والخرص وراء ضلال أكثرية أهل الأرض وإضلالهم عن سبيل الله . يقول تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ ﴾ (٢) .

وحقيقة الخرص - كما قال الراغب فى « مفردات القرآن » - : « أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال : خرص ، سواء أكان مطابقاً للشىء أو مخالفاً له ، من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين ، كفعل الخارص فى خرصه ، وكل مَن قال قولاً على هذا النحو قد يسمى كاذباً ، وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر عنه » (٣) .

ويقول القرآن عن أهل الكتاب : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ الله وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ، مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴾ (٤) .

ويقول عن المشركين وعلاقتهم بالآخرة وقيام الساعة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ

---

(١) يونس : ٦٦ (٢) الأنعام : ١١٦

(٣) مفردات القرآن ص ٢٩٧ - طبعة دار القلم بدمشق ، والدار الشامية ببيروت .

(٤) النساء : ١٥٧ ، ١٥٨

OBEIKAN.COM

الله حَقٌ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ (١) .

* *

٢ - عدم اتباع الأهواء والعواطف فى مجال العلم :

ولا ترفض العقلية العلمية الظن فقط ، بل ترفض الهوى والعاطفة أيضاً ، فالهوى يعمى ويصم ، واتباع العواطف قد يضلل الإنسان عن الحق ، وخصوصاً العواطف الهوج ، مثل الحب الشديد ، والكره الشديد ، والغضب الشديد .

ولا غرو أن جاء فى الحديث الصحيح : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » ، لأن انفعال الغضب يسد عليه منافذ الإدراك الصحيح لجوانب القضية المختلفة ، فيظهر حكمه غير سليم .

ولهذا عاب القرآن على المشركين هذين الأمرين : اتباع الظن وهوى الأنفس معاً . فقال فى شأن أصنامهم التى اتخذوها آلهة - اللَّات ، والعُزَّى ، ومناة الثالثة الأخرى - : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ (٢) .

وقال الله تعالى لداود : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ (٣) .

وقال فى خطاب رسوله محمد ﷺ : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ

---

(١) الجاثية : ٣٢ (٢) النجم : ٢٣ (٣) سورة ص : ٢٦

أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ (١) .

وقال تعالى فى ذم اتباع الهوى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة أُخرى يقول : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٣) .

ولأجل ذلك قال ابن عباس : « شر إله عُبِدَ فى الأرض : الهوى » !

فالعقلية العلمية هى التى تنحِّى الأهواء والانفعالات والعواطف جانباً ، وننظر إلى الأمر نظرة موضوعية محايدة .

* *

٣ - رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف :

والعقلية العلمية فى نظر القرآن : هى التى ترفض الجمود على ما كان عليه الآباء والأجداد ، أو التسليم المطلق لما عليه السَّلَف المعظَّمون ، ولا تقبل أن تُقلِّد هؤلاء أو أُولئك فيما اعتقدوه أو فعلوه ، بل لا بد من وضعه موضع الاختبار ، والنظر إليه فى ضوء العقل ، وبميزانه المستقل ، فليس من المعقول أن يفكر لنا الأموات ونحن أحياء ، وأن يلزمنا الأقدمون بنتائج عصور مضت ، إنما نحن ملزمون بما تهدى إليه عقولنا ، وما ينتهى إليه تفكيرنا . فإن من الخطل والخطر أن نفكر برؤوس غيرنا ، وقد خلف الله لنا رؤوساً خاصة بنا !

ولهذا شنَّ القرآن حملة عنيفة على الجمود والتقليد فى كل صوَره ، ففى

---

(١) القصص : ٥٠ (٢) الجاثية : ٢٣ (٣) الفرقان : ٤٣ ، ٤٤

OBEIKAN.COM

سورة البقرة يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وفى سورة المائدة يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالُواْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

ففى سورة البقرة بيَّن أنهم ينقصهم العقل ، وهنا بيَّن أنهم ينقصهم العلم ، وفى كلتا الحالتين بيَّن أنهم ينقصهم الاهتداء إلى الصواب .

وفى سورة هود يقول تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء ، ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ، وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ (٣) .

وفى سورة الزخرف يقول تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (٤) وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٥) .

فبيَّن الله تعالى أن هذا هو موقف المترفين من أهل الشرك من قديم : الاتكاء على ما كان عليه الآباء .

---

(١) البقرة : ١٧٠ ، ١٧١ (٢) المائدة : ١٠٤ (٣) هود : ١٠٩
(٤) أى على عقيدة . (٥) الزخرف : ٢٢ - ٢٤

وكذلك ذكر القرآن الكريم فى جملة سور هذا الجمود المقلِّد ، أو التقليد الجامد ، من الأبناء للآباء .

ففى قصة هود بعد دعوته البليغة وحواره القوى ، نقرأ : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (١) .

وفى قصة صالح : ﴿ قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجوّاً قَبْلَ هَذَا ، أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (٢) .

وفى قصة إبراهيم : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُواْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣)

وفى قصة شعيب : ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ (٤) .

وفى قصص الرُّسُل عامة مع أقوامهم يقول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (٥) .

يعنون بالسلطان المبين : الآيات الكونية الخارقة ، وكلها تعلات فارغة ، فقد جاءت الرُّسُل من قبل بهذه الآيات فكذَّبوا بها ، كما فعلوا مع صالح وغيره .

يقول العلاَّمة ابن الجوزى : فى التقليد إبطال منفعة العقل ، فقد خُلِق للتدبر والتأمل ، وقبيح بمن أُعطى شمعة أن يطفئها ويمشى فى الظلمة !

* *

(١) الأعراف : ٧٠ (٢) هود : ٦٢ (٣) الأنبياء : ٥٢ - ٥٤
(٤) هود : ٨٧ (٥) إبراهيم : ١٠

OBEIKAN.COM

٤ - رفض التبعية للسادة والكبراء :

ولم تقف حملة القرآن على الجمود العقلى الذى يتمثل فى تقليد الأبناء للآباء ، والأحفاد للأجداد ، بل شمل الجمود الذى يتمثل فى تبعية الشعوب والجماهير للسادة والكبراء والجبابرة وأصحاب السلطان والثراء .

لقد ذمَّ القرآن هذه التبعية العمياء ، وحمَّل الشعوب وزرها ، مع المتبوعين من أئمة أهل النار .

يقول القرآن على لسان نوح عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً ﴾ (١) .

وقال فى قصة هود وقومه عاد : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (٢) .

وقال فى قصة موسى وفرعون : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (٣) .

وقال فى سورة أُخرى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ (٤) .

وقد عرض القرآن لنا من مشاهد الآخرة ما يجسد لنا تلاوم المتبوعين والاتباع يوم القيامة ، وتبرؤ بعضهم من بعض ، ومحاولة كل فريق إلقاء التبعة على الآخر :

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا

---

(١) نوح : ٢١
(٢) هود : ٥٩
(٣) هود : ٩٦ ، ٩٧
(٤) الزخرف : ٥٤

OBEIKAN.COM

الرَّسُولَا * وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَاْ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾ (١) .

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ، بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ، وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِى أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ قَالَ ادْخُلُواْ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِى النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ . قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (٤) .

وهنا حمَّل القرآن الأتباع تبعة ضلالهم ، فقد منحهم الله من المواهب

---

(١) الأحزاب : ٦٦ - ٦٨ (٢) البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧

(٣) سبأ : ٣١ - ٣٣ (٤) الأعراف : ٣٨ ، ٣٩

OBEIKAN.COM

والقدرات والآلات ما يمكنهم من اتباع الهدى ، فعطلوا ذلك ، وساروا فى ركاب المضلِّين ، فما أغنوا عنهم من الله شيئاً .

صحيح أن المتبوعين المضلِّين يحملون من الأوزار أكثر من الأتباع ، لأنهم يحملون وزر الضلال ، ووزر الإضلال ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (٢) .

ولكن هذا لا ينقص من أوزار الأتباع الذين ألغوا عقولهم ، وداروا فى فلك المضلِّين .

* *

٥ - التعبد بالنظر العقلى :

ومن مقوِّمات هذه العقلية العلمية التى ينشئها القرآن : أنها عقلية تقوم على النظر والتفكر ، فالنظر عندها فريضة ، والتفكر لديها عبادة .

والقرآن حافل بالآيات التى تحض على النظر ، وتدعو إلى التفكر ، بأساليب شتَّى ، وصور متنوعة .

والمراد بالنظر : النظر العقلى ، وهو الذى يستخدم الإنسان فيه فكره فى التأمل والاعتبار ، بخلاف النظر البصرى ، فهو الذى يستخدم الإنسان فيه عينه .

قال الإمام الراغب : « النظر : تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشىء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص ، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص ، وهو الروية ، يقال : نظرت فلم تنظر : أى لم تتأمل ولم تتروّ » .

---

(١) النحل : ٢٥ (٢) العنكبوت : ١٣

OBEIKAN.COM

فعلى الإنسان أن يبدأ بالنظر فى نفسه أولاً ، ثم فى أقرب الأشياء إليه ، يقول تعالى :

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ (١) .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ (٢) .

ثم ينتقل بنظره إلى ما حوله متأملاً متدبراً معتبراً ، لينتقل من المصنوع إلى الصانع ، ومن الأثر إلى المؤثر ، ومن الكون إلى المكوِّن .

يقول القرآن : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَىٰ الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَىٰ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَىٰ الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٣) .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (٤) .

﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥) .

﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (٦) .

---

(١) الطارق : ٥ - ٨ (٢) عبس : ٢٤ - ٣٢ (٣) الغاشية : ١٧ - ٢٠
(٤) سورة ق : ٦ - ٨ (٥) يونس : ١٠١ (٦) الأعراف : ١٨٥

فالنظر هنا عام شامل ، يشمل كل ما خلق الله ، من الذَرَّة إلى المجَرَّة .

ومن داخل النفس إلى آفاق الكون الفسيح ، الذى لا يعلم سعته إلَّا خالقه :

﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

وأحياناً يأمر القرآن بالسير فى الأرض للنظر فى آيات الله فى الكون وفى الحياة وفى التاريخ :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ (٢) .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣) .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٤) .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٥) .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٦) .

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) الذاريات : ٢٠ ، ٢١ (٢) العنكبوت : ٢٠ (٣) النمل : ٦٩
(٤) الأنعام : ١١ (٥) آل عمران : ١٣٧ (٦) النحل : ٣٦
(٧) الروم : ٩

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن عدة مرات : الحث على السير فى الأرض ، والنظر فى سيرة الأوّلين ومسيرتهم ، وكيف نفذت فيهم سُـنَن الله التى لا تتخلف ، رغم ما كان لديهم من كثرة العدد ، وقوة العُدد .

المهم أن يمروا على آثار القوم وما خلفوه وراءهم بعقول تفكر ، لا بمجرد أعين تبصر .

كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (١) .

وبهذا شمل هذا النظر العقلى كل ما يقبل النظر : الإنسان نفسه . . ما حوله : من نبات : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ (٢) ، وحيوان ، وخصوصاً الإبل ﴿ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (٣) ، وجماد : ﴿ الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٤) ، والسماء : ﴿ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ (٥) ، وكل ما فى العالم عُلويه وسفليه بهذا الشمول الذى نبَّهت عليه الآية : ﴿ فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (٦) .

ولم يكن النظر مقصوراً على الأشياء ، بل تعداها إلى الأحداث والسـنن التى تدل عليها ، مثل : سنن الله فى عقوبات المكذِّبين ، وفى تغيير ما بالناس من نعم إذا غيَّروا ما بأنفسهم من خير . وسُنَّته فى سقوط الأُمم رغم عمارتها للأرض وكثرة أعدادها .

ومثل النظر العقلى : الرؤية العقلية ، فقد حثَّ القرآن فى آيات كثيرة على هذه الرؤية التى يقصد بها رؤية العقل لا رؤية العين ، وهى رؤية تشمل كل

---

(١) الحج : ٤٦ (٢) سورة ق : ١٠ (٣) الغاشية : ١٧
(٤) الغاشية : ٢٠ (٥) الغاشية : ١٨ (٦) الأعراف : ١٨٥

المخلوقات فى الأرض أو فى السماء مما يبين عظمة خالقها ، وروعة تدبيره ، وبالغ حكمته ، وسابغ نعمه على عباده ، كما تشمل الوقائع والأحداث ، التى تُبرز قدرة الله تعالى وهيمنته على الكون وحده ، كما تُبرز عدالته وأنه يملى ويمهل ، ولكنه لا يغفل ولا يهمل .

تقرأ مثل هذه الآيات :

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ ﴾ (٢) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

وينتقل من الطير والأنعام إلى الأرض ومياهها ونباتاتها وعلاقة السماء بها ، والظواهر المتعلقة بها من اللَّيل والنهار ، يقول سبحانه :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (٤) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ، أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ، إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (٦) .

---

(١) النحل : ٧٩ (٢) الملك : ١٩ (٣) يس : ٧١ - ٧٣
(٤) الشعراء : ٧ (٥) السجدة : ٢٧ (٦) الحج : ٦٣

والخطاب فى مثل هذه الصيغة : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ للنبى ﷺ ولكل مكلَّف فى الأُمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٣) .

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٥) .

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (٦)

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) الحج ٦٥ (٢) الزمر : ٢١ (٣) لقمان : ٢٩
(٤) النمل : ٨٦ (٥) فاطر : ٢٧ ، ٢٨ (٦) سبأ : ٩
(٧) النحل : ٤٨

OBEIKAN.COM

وهذه الرؤية التى دعا إليها القرآن شملت العالَم العُلوى كالعالَم السُفلى :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَوَات وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِن الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ، أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ (٢) .

وهذه الرؤية ينبغى أن تشمل النظر فيما خصَّهم الله به من نعم لا تتوافر لغيرهم . وهذا خطاب لأهل مكة خاصة : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (٣) .

ومما تشمل هذه الرؤية آثار فعل الله فى الناس والمجتمعات ، من بسط وقبض ، ورفع وخفض ، وإعزاز وإذلال ، يقول تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٥) .

﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٦) .

ومعنى نقص أطراف الأرض : أن الله يديل من دولة لأخرى ، ويأخذ من الدولة الكبيرة لحساب دولة صغيرة ، وتلك الأيام نداولها بين الناس .

---

(١) الأنبياء : ٣٠ (٢) العنكبوت : ١٩ (٣) العنكبوت : ٦٧
(٤) الروم : ٣٧ (٥) الرعد : ٤١ (٦) الأنبياء : ٤٤

OBEIKAN.COM

وتشمل هذه الرؤية تاريخ القرون الماضية ، وصنع الله فى أهلها ، من الطغاة والمتجبرين ، الذين أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها :

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ (١) .

لم يغن هؤلاء ما أنشأوا من عمارة شاهقة ، وما أبدعوا من آثار مادية ، فقد شادوا البنيان وخربوا الإنسان ، وأصلحوا الأرض وأفسدوا البَشر ، وعنوا بالطين ونسوا الدين ، وعاشوا للدنيا وأغفلوا الآخرة ، فلم تغن عنهم دنياهم من الله شيئاً .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْاْ فِى الْبِلادِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (٢) .

بهذا حكم القرآن على الحضارات المادية المحضة أنها غير قابلة للبقاء والاستمرار ، وأن عاقبتها إلى دمار وتبار .

* *

٦ - لا تقبل دعوى بغير برهان :

ومن معالم العقلية العلمية فى القرآن : أنها لا تقبل أى دعوى تدعى بغير برهان علمى ، يشهد لها ، ويدل على صحتها وصدقها ، وما لم يوجد دليل يثبت الدعوى أو القضية المطروحة ، فهى فى نظر العقل المسلم مرفوضة ساقطة .

---

(١) الأنعام : ٦ (٢) الفجر : ٦ - ١٤

لقد رفض القرآن ما شاع لدى كثير من أرباب الديانات السابقة من قبول الدعاوى العريضة ، والمعتقدات الموروثة ، دون برهان يدل على صحتها ، ولم يرض بمسلك الذين قالوا : « اعتقد وأنت أعمى » ! أو « أغمض عينيك ثم اتبعنى » !

إن كل مؤمن بعقيدة مطالَب بإقامة البرهان على صدقها ، أو التسليم لمن يدعوه إلى عقيدة غيرها يؤيدها الدليل والحُجَّة .

وبهذا قرر القرآن هذه القاعدة الجليلة الكبيرة : أن لا دعوى بغير برهان !

نقرأ فى ذلك حديث القرآن عن دعاوى أهل الكتاب ، وتعقيبه عليها :

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

ونقرأ كذلك حديثه مع المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أُخرى ، وحواره معهم فى قضية الوحدانية :

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وفى سورة أُخرى يقول : ﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ (٣) .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ ، ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ١١١

(٢) النمل : ٦٤

(٣) الأنبياء : ٢٤

(٤) الأحقاف : ٤

OBEIKAN.COM

وفى قضية التحريم والتحليل ، التى تجاوزوا فيها حدودهم ، فحرَّموا وحلَّلوا بالهوى أو بالوهم والظن أو بمجرد التقليد الأعمى ، يناقشهم القرآن :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٢) .

فأبطل بذلك دعوى الجبرية ، الذين يزعمون أنَّ ما هم فيه من ضلال الشرك وتحريم الحلال ، إنما هو بمشيئة الله تعالى ، يقصدون : المشيئة الملجئة لهم ، التى لا يملكون معها اختياراً ولا إرادة ، وكذبوا . ما لهم على هذا من دليل ، فإن كان لديهم علم فليخرجوه .

وفى قضية ادعاء البنوّة لله ، وأنه سبحانه اتخذ ولداً من الملائكة - الذين زعموا أنهم بنات الله ! - أو من البَشر مثل المسيح الذين قال النصارى فيه : ابن الله ، ومثل عزير ، الذى قال اليهود فيه : ابن الله ، نقرأ :

﴿ قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِىُّ ، لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ، إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

يعنى : ما عندكم من حُجَّة تؤيدكم فيما قلتم ، إن هو إلَّا قولٌ على الله بلا علم .

* *

(١) الأنعام : ١٤٣ (٢) الأنعام : ١٤٨ (٣) يونس : ٦٨

OBEIKAN.COM

● القرآن يسمى الحُجَّة سلطاناً :

قال الحَبْر ابن عباس : « كل سلطان فى القرآن فهو الحُجَّة » .

وهذا ثابت بالاستقراء والتتبع لموارد الكلمة فى الكتاب العزيز .

يقول تعالى فى شأن المشركين : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) . أى يعبدون من الآلهة والأوثان ما لم تقم أى حُجَّة عليه ، لا من عقل ولا من نقل .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

يعنى : ما لم يؤيده بحُجَّة ، إنما هو من وحى أوهامكم وأهوائكم .

وفى مجادلة هود لقومه : ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ (٣) .

وفى خطاب القرآن لمشركى العرب الذين عبدوا اللات والعُزَّى ، ومناة الثالثة الأُخرى ، نقرأ : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ (٤) . أى ما أنزل الله بها من حُجَّة ولا برهان ، بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم .

ونقرأ كذلك : ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُواْ بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٥) .

يعنى : أم لكم حُجَّة بيِّنة مقنعة ، فائتوا بها إن كنتم صادقين فى دعواكم .

---

(١) الحج : ٧١ (٢) الأعراف : ٣٣ (٣) الأعراف : ٧١
(٤) النجم : ٢٣ (٥) الصافات : ١٥٦ ، ١٥٧

OBEIKAN.COM

وفى موضع واحد فى القرآن اختلف فيه ، وهو قوله تعالى فى مشهد من مشاهد القيامة على لسان مَن أُوتِىَ كتابه بشماله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَه * هَّلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ ﴾ (١) . فقيل : المراد به : المُلْك والقدرة . أى ذهب عنى مالى ومُلْكى معاً ، فلا مال لى ولا جاه ، وقيل : هو على بابه ، والمراد : انقطعت حُجَّتى ، وبطلت ، فلا حُجَّة لى .

يقول العلامة ابن القيم : « والمقصود : أن الله سبحانه سمَّى علم الحُجَّة سلطاناً ؛ لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد . ولهذا ينقاد الناس للحُجَّة ما لا ينقادون لليد ، فإن الحُجَّة تنقاد لها القلوب ، وأما اليد فينقاد لها البدن . فالحُجَّة تأسر القلب وتقوده ، وتذل المخالف ، وإن أظهر العناد والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ، ذليل مقهور تحت سلطانها . بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يُساس به ، فهو بمنزلة سلطان السباع والأُسود ونحوها : قدرة بلا علم ولا رحمة ، بخلاف الحُجَّة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة ، ومَن لم يكن له اقتدار فى علمه ، فهو إما لضعف حُجَّته وسلطانه ، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له ، وإلا فالحُجَّة ناصرة نفسها ، ظاهرة على الباطل ، قاهرة له » (٢) .

* *

● الشرك جهل لأنه دعوى بلا برهان :

ومن هنا اعتبر القرآن الشرك من باب الجهل المطلق ؛ لأنه محض دعوى ، لا تسندها بيِّنة ، ولا يشد عضدها برهان ، ولا يقوى ظهرها علم .

---

(١) الحاقة : ٢٨ ، ٢٩ (٢) مفتاح دار السعادة : ١/ ٥٩

OBEIKAN.COM

قرأنا فى ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) .

وفى آية تحديد المحرَّمات الأصلية والدائمة قرأنا قوله تعالى : ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

ونقرأ فى مقام آخر على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ تَدْعُونَنِى لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٣) .

وفى الوصية ببر الوالدين : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ (٤) .

والشرك كله ليس للمرء به علم ، فهى صفة ثابتة دائمة لا تنفك عن الشرك .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٥) .

وهذا الوصف : ﴿ لا بُرْهَان لَهُ بِهِ ﴾ ، إنما هو قيد لبيان الواقع ، الذى لا ينفك عن دعاء إلٰه مع الله ، فَلا يُفهم منه أنه قد يكون مع المشرك يوماً برهان له به ، وإنما جىء به على هذه الصيغة لتعظيم قيمة البرهان .

* *

---

(١) الحج : ٧١ (٢) الأعراف : ٣٣ (٣) غافر : ٤٢

(٤) لقمان : ١٥ (٥) المؤمنون : ١١٧

OBEIKAN.COM

● **براهين يرشد إليها القرآن** :

وإذا كان القرآن يرفض كل دعوى لا يقوم عليها برهان يثبتها ، فإننا نجده - فى مواطن شتَّى - يرشد إلى أنواع من البراهين أو الأدلة ، ينبغى اعتمادها والاستناد إليها .

من هذه البراهين التى هدى إليها القرآن العزيز :

(١) البرهان الحسِّى :

ونعنى به ما يدل عليه الحس كالمشاهدة ونحوها . نقرأ فى ذلك :

﴿ وَجَعَلُواْ الْمَلاَئكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً ، أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ ﴾ (١) .

﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ... ﴾ (٢) .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ (٣) .

﴿ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) .

﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ، مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (٥) .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ ... الآيات (٦) .

صحيح أن المراد هنا النظر العقلى ، ولكنه يبدأ بالنظر البصرى .

*

---

(١) الزخرف : ١٩ (٢) الكهف : ٥١ (٣) الأحقاف : ٤

(٤) لقمان : ١١ (٥) الملك : ٣ ، ٤ (٦) سورة ق : ٦

OBEIKAN.COM

(٢) البرهان السمعى :

ونعنى به : البرهان المسموع من الوحى ، الذى ثبت بقواطع العقل ، والناطق بأوامر الرب ونواهيه ، فإذا ثبتت نبوة نبى بالآيات القاطعة الدالة على أنه لا يمثل نفسه ، وإنما يمثل إرادة الله الجليل ، وجب الأخذ منه ، والتلقى عنه ، فى كل ما يتعلق بأُمور التشريع والأمر والنهى ، والتحليل والتحريم ونحوها ، ولا يُقبل من أحد دعوى شىء من هذا إلا ببرهان وعلم من عند الله .

وفى هذا يقول القرآن للذين حرَّموا وحلَّلوا الأنعام من عند أنفسهم : ﴿ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

وحين قالوا : إن الله شاء لنا هذا ، على معنى أنه رضيه منا ، قال : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ (٢) .

وحين زعموا أن الله أمرهم بالتعرِّى فى طوافهم بالبيت قال : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٤) .

وفى موضع آخر يقول : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ (٥) .

ويقول أيضاً : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) الأنعام : ١٤٣ (٢) الأنعام : ١٤٨ (٣) الأعراف : ٢٨
(٤) الأعراف : ٣٢ (٥) الأنبياء : ٢٤ (٦) الزخرف : ٢١

OBEIKAN.COM

﴿ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

*

(٣) البرهان التاريخى :

وهو البرهان الذى يقوم على أساس الرواية الموثقة عن أحداث سبقت ، أو عن مشاهدة للآثار التى خلفها أهلها فى الأرض ، المعبِّرة بلسان الحال عما كانوا عليه من قوة وسطوة وعمارة للأرض .

نقرأ فى ذلك : ﴿ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ (٣) ، فهذه الأثارة من العلم تشير إلى التاريخ .

﴿ فَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٤) .

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِى الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾ (٥) .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ . . . . ﴾ (٦) .

*

---

(١) الأحقاف : ٤ (٢) آل عمران : ٩٣ (٣) الأحقاف : ٤

(٤) النحل : ٣٦ (٥) غافر : ٢١ (٦) الفجر : ٦ - ١٠

OBEIKAN.COM

(٤) البرهان النظرى أو العقلى :

وهو البرهان الذى طالب القرآن به المشركين أن يقيموه على صحة شركهم : ﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ (١) ، ﴿ أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

*** القرآن يقيم الأدلة على القضايا العقدية الكبرى :**

(أ) وجود الله :

وهو الذى أقامه القرآن للدلالة على وجود الله سبحانه : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُواْ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (٣) .

ولا يمكن أن يكونوا قد خُلِقوا من غير شىء ؛ لأن هذا ينافى قانون العلِّية أو السببية ، وهو أن كل مسبب لا بد له من سبب ، وكل أثر لا بد له من مؤثر ، وكل صنعة لا بد لها من صانع ، وهذا مبدأ فطرى لا ينازع فيه إلا مكابر . وإذا لم يُخْلَقوا من غير شىء ، فلا يمكن أن يكونوا هم خالقى أنفسهم ؛ لأن الشىء لا يخلق نفسه ، لأن المخلوق قبل خلقه عدم ، والعدم لا ينشىء الوجود .

ولا يمكن أن يكونوا هم خالقى السموات والأرض ؛ لأنها مخلوقة قبل وجودهم ، ولا يستطيع مخلوق أن يدَّعى أنه خلقهما .

*

(ب) وحدانية الله تعالى :

وهو البرهان الذى أقامه القرآن للدلالة على وحدانية الله تعالى ، وأنه واحد لا شريك له ، كما فى قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٤) .

---

(١) الأنبياء : ٢٤ (٢) النمل : ٦٤

(٣) الطور : ٣٥ ، ٣٦ (٤) الأنبياء : ٢٢

OBEIKAN.COM

وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ من وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ (٢) .

*

(جـ) التنزيه عن الولد :

وهو نفس البرهان الذى أقامه القرآن على تنزيه الله تعالى عن الأولاد والأبناء ، التى زعمها المشركون والنصارى لله ، يقول تعالى : ﴿ قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِىُّ ، لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ (٣) .

وفى موضع آخر يقول : ﴿ وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إن كُلُّ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ (٤) . والعبد لا يكون ولداً .

وفى هذا يقول عمن قالوا : الملائكة بنات الله : ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

فإذا كانوا عباده الخاضعين له ، المطيعين لأمره ، كيف يكونون أولاده ؟!

وفى مقام آخر يرد عليهم بمنطق آخر فيقول : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (٦) .

*

---

(١) المؤمنون : ٩١ (٢) الإسراء : ٤٢ (٣) يونس : ٦٨

(٤) مريم : ٩٢ ، ٩٣ (٥) الأنبياء : ٢٦ ، ٢٧ (٦) الأنعام : ١٠١

OBEIKAN.COM

(د) إنزال الكتب وإرسال الرُّسُل :

وهذا البرهان العقلى هو الذى أقامه القرآن على صحة إنزال الكتب وإرسال الرُّسُل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ، وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللهُ ﴾ (١) .

بيَّن لهم أنهم لم يعطوا الله تعالى حقه ، ولم يصفوه بما ينبغى له من صفات الكمال ، ولم يُقدِّروه حق قدره ، إذ نفوا نفياً مطلقاً إنزاله على بَشر كتاباً . والحكيم لا يدع عباده هملاً ، ولا يتركهم سدىً ، دون أن ينزل عليهم من كتبه ، ويبعث فيهم من رسله مَن يعلمهم ما يحبه منهم وما يكرهه ، ويقيم بينهم الموازين القسط ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه . كما قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ . . . ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ (٣) .

❊

(هـ) البعث والجزاء :

وهذا البرهان العقلى هو الذى أقامه القرآن كذلك للدلالة على حقية البعث بعد الموت ، والجزاء العادل فى الآخرة ، ثواباً وعقاباً ، وجنَّة وناراً . نقرأ فى ذلك :

❊ دليل الخلق الأول :

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (٤) .

---

(١) الأنعام : ٩١ (٢) البقرة : ٢١٣

(٣) المائدة : ١٩ (٤) الروم : ٢٧

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيد ﴾ (١) .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَن يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

*

* خلق السموات والأرض :

ثم يلفتهم إلى دليل آخر ، وهو خلق الأجرام العظيمة فى هذا الكون الواسع ، ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَىٰ ، بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) .

*

* إحياء الأرض الميتة :

ومن البراهين التى نبَّه عليها القرآن فى قضية البعث ، ورد شبهات المنكرين والمستبعدين : إحياء الأرض الميتة الهامدة ، حين ينزل عليها الماء ، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، وما أشبه الإنسان بالأرض التى خُلق منها ، وعاش فيها ، يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَىٰ ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة ق : ١٥ (٢) يس : ٧٨ ، ٧٩ (٣) غافر : ٥٧

(٤) يس : ٨١ (٥) الأحقاف : ٣٣ (٦) فصلت : ٣٩

OBEIKAN.COM

وقد تكرر هذا المعنى فى سور عدة ، وبأساليب شتَّى ، لوضوحه ، وقوة تأثيره فى الخاصة والعامة على سواء .

*

* بطلان التسوية بين الأخيار والأشرار :

ومن البراهين التى ساقها القرآن للدلالة على صحة قضية البعث والجزاء : ما ينكره العقل الرشيد ، والفطرة السليمة من التسوية بين الأخيار والأشرار ، بين المتقين والفُجَّار ، بين مَن عاش عمره لفعل الخيرات وعمل الصالحات ، ولم يلق إلا التنكر والاضطهاد ، وربما قتله الجبابرة والظالمون ، ومَن عاش عمره فى ارتكاب الموبقات ، وإشاعة المنكرات ، وسفك الدماء ، ونهب الأموال ، وهتك الأعراض ، ومع هذا لم يلق جزاءه العادل فى الدنيا ، لأنه احتال على القانون ، أو كان أقوى من القانون ، أو كان هو حارس القانون ، ولكن كان كما قال المثل : « حاميها حراميها » !

إن هذه التسوية بين المختلفين فى الإيمان والكفر ، والخير والشر ، هى الباطل الذى يتنزَّه الخالق الحكيم عنه ، والحق - فى نظر القرآن - هو جزاء الذين أساؤوا بما عملوا ، والذين أحسنوا بالحُسْنى ، يقول القرآن :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ ﴾ (١) .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢) .

* *

---

(١) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨

(٢) الجاثية : ٢١ ، ٢٢

٧ - رعاية سنن الله فى الكون والمجتمع :

ومن معالم « العقلية العلمية » التى ينشئها القرآن : احترام السنن والقوانين التى أقام الله عليها نظام الكون ، ونظام المجتمع ، وهى سنن وقوانين لها صفة العموم والشمول ، فهى تحكم على الناس جميعاً ، أبيضهم وأسودهم ، عربهم وعجمهم ، حاضرهم وباديهم ، قويهم وضعيفهم . . لا تحابى أحداً ، ولا تتحامى أحداً ، الكل فى ميزانها سواء .

كما أن لها صفة الثبات والدوام ، فهى لا تتغير ولا تتبدل ، وهى تجرى على الآخرين كما جرت على الأوَّلين ، وتعمل فى عصر سفن الفضاء ، عملها فى عصر الجمل سفينة الصحراء .

يقول الله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١) .

وقد ذكر القرآن كلمة « سنن » مجموعة منكَّرة ، كما فى هذه الآية ، كما وردت مفردة ومعرَّفة بالإضافة كما فى الآيات الأخرى .

اقرأ فى ذلك هذه الآيات من القرآن المكى :

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ (٢) .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً * اسْتِكْبَاراً فِى الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ، وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنظُرُونَ

---

(١) آل عمران : ١٣٧ (٢) الإسراء : ٧٦ ، ٧٧

OBEIKAN.COM

إِلَّا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ ، فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ (١) .

واقرأ فى القرآن المدنى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ (٢) .

كان هذا تعقيباً على قصة زينب بنت جحش وطلاقها من زيد بن حارثة متبنّى الرسول ﷺ ، وتحرجه من ذلك ، حتى لا يقال : تزوج محمد امرأة ابنه !

وفى نفس السورة : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَّلْعُونِينَ ، أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ الأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ (٤) .

والملاحظ : أن هذه الآيات كلها - مكية ومدنية - : أكّدت ثبات السُّنَّة واطّرادها ودوامها ، كما أنها جميعاً تتحدث عن السنن الاجتماعية .

أعنى : سنن الله فى الاجتماع البشرى : فى النصر والهزيمة ، والنجاة والهلاك ، والبقاء والزوال .

ومن أجل ذلك أنكر القرآن « السحر » واعتبره من عمل الشياطين ، ومن أساليب الكَفَرة ، واعتبره كفراً أو قريباً من الكفر ، وعدَّ تعلمه مما يضر ولا ينفع . قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى

---

(١) فاطر : ٤٢ ، ٤٣ (٢) الأحزاب : ٣٨

(٣) الأحزاب : ٦٠ - ٦٢ (٤) الفتح : ٢٢ - ٢٣

OBEIKAN.COM

الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

والرسول ﷺ أكَّدَ وجوب رعاية سنن الله تعالى ، بقوله وعمله وتقريره ، كما هو واضح فى سُنَّته وسيرته .

حينما كُسِفت الشمس يوم مات ابنه إبراهيم ، قال الناس : كُسِفت الشمس لموت إبراهيم ، وقد كان شائعاً فى اعتقادهم أن الشمس لا تُكسَف ، والقمر لا يُخسف ، إلا لموت عظيم فى الناس ، ولو كان عليه الصلاة والسلام ممن يسكت على باطل لسكت على هذا القول الذى يُضفى على أُسرته هالة من العظمة والقدسية الزائفة ، ولكنه أنكر ذلك ورفضه جهرة ، وخطب فى الناس قائلاً : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبِّروا وصلُّوا وتصدَّقوا » (٢) .

وقد أنكر - صلى الله عليه وسلم - كل ما لا يقوم على السنن الطبيعية والاجتماعية فى أُمور الحياة والرزق والطب والتداوى والعلاقات المختلفة .

ومن هنا أكَّد تحريم السحر ، وجعله من الكبائر أو « الموبقات » ، أى المهلكات التى يجب تحذير الأُمة منها ، فقال : « اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله تعالى ، والسحر ، وقتل النفس . . . » الحديث (٣) .

وأنكر كذلك « التنجيم » الذى يقوم على التنبؤ بالغيبيات والمستقبليات ، وربط ذلك

---

(١) البقرة : ١٠٢

(٢) متفق عليه من حديث عائشة ، كما فى « اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان » الأحاديث (٥٢٠) ، (٥٢١) ، (٥٢٢) ، ومن حديث ابن عباس (٥٢٥) ، وأبى مسعود (٥٢٧) ، وأبى موسى (٥٢٨) ، وابن عمر (٥٢٩) ، والمغيرة (٥٣٠) .

(٣) متفق عليه عن أبى هريرة - اللؤلؤ والمرجان (٥٦) .

OBEIKAN.COM

بالنجوم ، وحركاتها فيما زعموا ، وهو الذى قيل فيه : « كذب المنجمون ولو صدقوا » . وهو غير علم الفلك الذى يقوم على أساس من المشاهدة والحسابات الرياضية .

يقول الرسول الكريم : « مَن اقتبس علماً من النجوم ، فقد اقتبس شُعْبة من السحر ، زاد ما زاد » (١) .

وشدَّد النكير على اتخاذ التمائم الرقَى الجاهلية ، وأمر بمراعاة الأسباب الطبيعية فى التداوى والعلاج .

روى عنه ابن مسعود قوله : « إن الرقَى والتمائم والتِّوَلة شرك » (٢) .

والتَّوَلة (بكسر التاء وفتح الواو) : شىء يصنعه النساء (من ضروب السحر) للتحبب إلى أزواجهن .

وقال : « مَن علق تميمة فقد أشرك » (٣) .

إن المسلمين فى العصور الأُولى رعوا هذه السنن ، واحترموا شبكة الأسباب والمسببات ، فأقاموا حضارة مُثْلَى ، نشأت فى رحابها علوم كونية ورياضية ، امتدت جذوعها ، وبسقت فروعها ، وآتت أُكلها بإذن ربها .

* * *

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٦٠٧٤) .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم عن ابن مسعود - صحيح الجامع الصغير (١٦٣٢) .

(٣) رواه أحمد والحاكم عن عقبة بن عامر - صحيح الجامع الصغير (٦٣٩٤) .

OBEIKAN.COM